obeikandl.com

بين الجَـدِّ والحفيد

obeikandl.com

عبد المطلب (جد الرسول ﷺ)

يطيب لنا أن نتحدث عن واحد من كبار السن، كان جدًّا عظيمًا، ورائعًا، وشهد له التاريخ بذلك، واحتفظ له بمكانة كبيرة، ومحترمة.. نحن نتحدث عن «عبد المطلب» جدّ الرسول ﷺ.. وقصص شبابه معروفة، كسيّدٍ لقومه قريش، وقيامه بالسقاية فى الكعبة، وحفره لزمزم، وانتزاع قريش لما عثر عليه من كنوز أثناء الحفر.. ومعروف أيضًا موقفه مع أبرهة حين طلب إليه أن يعيد له إبله التى استولى عليها الجند الأحباش، وعندما أعلن فى ثبات أن «للبيت رب يحميه»..

وعندما نتحدث عنه كجدٍّ للرسول ﷺ نذكر أنهم حملوا إليه الوليد الجديد، ولد ابنه عبد الله الذى كان قد رحل عن دنيانا، من آمنة بنت وهب، وقد اختار الجد لحفيده اسم محمد ليكون محمودًا فى السماء والأرض، وقد قام بمكافأة مَنْ حمل إليه الخبر يومئذ.. ومنذ هذه اللحظة بدأ الجد يرعى حفيده، ويعطف عليه، ويشمله بعنايته وهو ينمو ويكبر.. وكان الجد يشعر بأن مستقبلاً عظيمًا ينتظر هذا الحفيد، وقبل أن ترضعه حليمة وأن تحمله إلى البادية، حيث الهواء أنقى، والجو أفضل، حفظ لنا التاريخ حوارًا دار بينها وبين الجد الذى قال لها بعد أن تعرَّف عليها:

- يا حليمة، إن عندى غلامًا يتيمًا، وعرضته على نساء بنى سعد

فلم يَقْبَلْنَهُ، وقُلْنَ: ما عند اليتيم من خير؟ إنما نلتمس الكرامة من الآباء، فهل لكِ أن تُرضعيه، فعسى أن تسعدى به؟

واستسمحته فى أن تشاور زوجها الحارث، الذى وافَقَ، وتهلل وجه الجد فرحًا، وأدخلها إلى بيت آمنة، فرحبت بها وحملت إليها الطفل «محمدًا» وهو فى ثوب أبيض، وتحته حريرة خضراء.. وأخذته ومضت.. وعادت به إلى أمه، التى رحلت عن الدنيا وعمره ست سنوات.. وكفله جده عبد المطلب، وكان يحسن القراءة والكتابة، وكان يسجل ديونه على تجّار مكة، ويخط على الورق رسائل وخطابات.. ولنا أن نتساءل: لماذا لم يحاول الجد أن يعلم حفيده القراءة والكتابة؟.. إن الجد لم يكن لديه من المال ما يستطيع به أن يأتى بمعلم للحفيد، ولم يكن باستطاعته أن يعلمه بنفسه، لأن الرجل أشرف على الثمانين وفقد نور عينيه، ولم يعد قادرًا على أن يرى، وكل ما كان يمكنه أن يصطحبه معه إلى الحرم، حيث الكعبة المشرفة، وكان للجد عندها فراش يجلس عليه، ولا يشاركه فى ذلك أحد، مهابة له وتكريما.. شخص واحد كان يجد فى نفسه الجرأة على أن يمضى تجاهه، ويزاحمه فى هذا الفراش، وربما دفعه بيده الصغيرة من أجل أن يُفسح له مكانًا يجلس فيه، ملتصقا به.. كان ذلك الشخص هو الطفل «محمد»، وعندما يأتى أعمامه ـ أبناء عبد المطلب ـ لكى يحملوا الصغير بعيدًا عن الشيخ الضرير يتمسك به ويهتف:

- دعوا لى ابنى!

ويستجيبون له.

فيضمه إلى صدره، ويمسح بيده على رأسه وظهره، أو يربت ظَهْرَهُ، ويُقَبّله فى حرارة، معبرًا عن حبه له واعتزازه به.. وحَدَثَ يومًا أن أقبل الطفل الصغير ليشارك جده فى فراشه - كما تعود - فما عاد أحد يحول بينه وبين ذلك، ولكنَّ يدًا امتدت لتجنبه بعنف وقوة، فارتفع صوت بكائه، فسألهم عبد المطلب:

- لماذا يبكى ابنى؟.. قالوا: أراد أن يُجالسك فمنعناه..

وغضب عبد المطلب وأمرهم بأن يردُّوه إليه، فإن فيه بعضًا من أبيه الحبيب الذى رَحَل قبل أن يراه، وفيه نفحة من أمه التى ودَّعت الحياة مبكرًا.. وكثيرًا ما كانوا يحملون الطعام إلى الجد حيث هو على فراشه ويكون صغيره بجانبه، فيقربه الشيخ إليه أو يجلسه على ركبته، ويختار له أطيب الطعام وأحلى ما على المائدة ليعطيه إيَّاه فى حُب وحنان ظاهرى. وتطوف بوجه الصغير بسمة رضا وشعور بالأمان والاطمئنان.

وتعوَّد الناس على أن يروا الجد والحفيد معًا.. يمسك الحفيد بيد جده ويمضيان معًا إلى اللقاءات العامة، وإلى الزيارات، والاجتماعات.. وإلى الأسواق والحوانيت.. بل ربما ذهبا معًا إلى دار النُّدوة التى لايدخلها إلا كبار القوم، وإذا بالحفيد يجلس بينهم فى دعة وسكون وهدوء.. كأنما يشعر بجلال المكان، ويستمع للكبار وهم يتحدثون.. ولم يكن من السهل عليه فى هذه السن المبكرة أن

يدرك ما يدور حوله ولا ما يقوله عقلاء قريش، غير أنه مما لاشك فيه أنه تأثر بهذا المكان، والجو الذى يسوده الوقار والحكمة ويسيطر عليه العقل والتفكير.

وعندما كان الجفاف يصيب مكة والمناطق التى حولها، تضطرب حالة الناس، ويرغبون فى أن يبتهلوا إلى الله لينزل الغيث، وكانوا ينطلقون من أجل هذا إلى خارج المدينة، والجد عبد المطلب فى مقدمتهم ومعه حفيده.. هما معا فى كل شىء.. حتى فى سوق عكاظ، وهما خلال ذلك يتحدثان،، الحفيد يسأل والجد يجيب.. بخبرة الثمانين عامًا التى عاشها محتشدة بالأحداث والتجارب والخبرات.

ومرض عبد المطلب، وكان يحف به بناته الستة وأبناؤه التسع، والأحفاد، ويختلى الرجل المريض بابنه «أبى طالب»، ويوصيه قائلاً:

- أوصيك بابنى محمد.. ليكن ابن أخيك عبد الله كأبنائك تمامًا.. أرجو أن ترعاه بكل ما تملك، وبكل ما تستطيع.

ويرحل عبد المطلب عن الدنيا، ويبكيه الحفيد.. كان الشيخ فى الثمانين من عمره والحفيد فى الثامنة.. ولم ينس الحفيد جده على مدى العمر كله.. كان الجد مَدرسة مبكرة، ورائعة، تعلّم فيها الحفيد الخُلق والأدب، وحصل منها على خبرات عريضة، وتجارب كثيرة، لاتُتاح لغيره من الأطفال.

* * *

راوى القصص العجوز

«جورج سِيان تَار» راوى حكايات محترف.. ومع أن سِنّه الآن قد تجاوزت السبعين فإنه مازال يقوم بهذا العمل وهذه المهمة.. يتقاضى مائة جنيه استرلينى عن الساعة الواحدة التى يحكى فيها قصصه فى المدارس والنوادى وتجمعات الأطفال فى لندن.. ويقول عن نفسه: إنه ليس كاتبًا للأطفال، لكنه رَاوٍ يكتب لنفسِه بنفسه قصصه التى يحكيها.. و«سيان تار» يقول: إنه عاش فى مصر إلى أن أصبح عمره ثلاث عشرة سنة.. ويضيف: إن مصر هى التى علمته هذه المهنة الجميلة التى يعشقها، ولو أنها جعلت منه وهو فى العشرينيات من عمره «رجلاً كهلاً».. و «شيخًا».. و «عجوزًا».. لكنه استمتع بتحويل شبابه إلى مراحل أكبر من سنه، وتملّكه وهو فى سن متأخرة أنه مازال شابًّا، وأنه أحسن اختيار مهنته التى جعلته يقضى شيخوخته بين الأطفال، وكأنه منهم.. اختلطت مراحل الطفولة عنده بشكل فريد، وحكاياته ممتعة، خاصة وهو يقرأ كثيرًا بعدّة لغات.. أُمُّه أرمينية، وعلَّمته لغتها.. ويعرف الإيطالية، لأن أباه إيطالى.. ودرس فى مدارس إنجليزية، فتعلم لغتها.. كما أنه عاش فى فرنسا فتعلم لغتها.. كل هذا بجانب اللغة العربية التى أتقنها وقرأ بها ألف ليلة..

ومن بين حكاياته الطريفة واحدة عن سيدة عجوز اتفقت مع دجاجاتها على أن تضع كل منها بيضة فى كل صباح.. ونفذت الدجاجات الاثنتا عشرة هذا الاتفاق، إلا أنها فجأة ـــ بعد مرور بعض الوقت ـ لم تجد غير ثمانى بيضات.. وأعلنت أن الدجاج قد خرق الاتفاق ولم ينفذ المعاهدة التى تمت بينهما.. فراقبتها، وجعلت الدجاجات الأربعة محمرة وشهية.. وليس أطرف من القصة غير التعليق عليها، قائلاً: إنه كتبها ورَوَاها ولا يقصد بها دولة معينة فى الشرق الأوسط لا تنفذ اتفاقياتها.. شكرًا «سِيان تار»!!

وله قصة رواها عمَّا حَدَثَ له فى مصر، إذ كان لا يعرف كيف يبتلع حبات الدواء وهو طفل. وضبطته أخته يتركها تحت لسانه.. فأخذتها منه بالقوة بعد أن أخرجها من فمه، وكانت الأم تجلس إلى جارتها يشربان القهوة، ولم تجد الأخت وسيلة للتخلص من حبة الدواء إلاَّ بوضعها فى فنجان الضيفة!.. التى أحست بمرارة طعم القهوة دون أن تدرى سببًا لذلك.

والقصة الثالثة كانت أيضًا بالقاهرة عن أبيه الذى كان يهوى المراهنة على سباق الخيل فى نادٍ بالزمالك، وكانت الأم تغضب لذلك وتعنفه قائلة إنه سيعود يومًا عاريًا، لأنه رهن ثيابه.. وما كان من الأب إلا أن اتفق مع ابنه على أن يأخذ منه ملابسه عند الباب

الخارجى، ويدق باب بيته بملابسه الداخلية فتراه الأم على هذه الصورة، لتتحقق نبوءتها.. وقد كان.. إلا أنه قبل أن يدق باب بيته نزلت العجوز صاحبة البيت من الطابق العلوى ولمحته فصرخت صرخة مدوية..

جميل أن يحتفظ هذا الشيخ العجوز بذكرياته عن مصر ما يزيد على ستين عامًا يحكيها لأطفال إنجلترا من أحفاده!

* * *

obeikandl.com

الجدة «سهير القلماوى»

عندما أصبحت د. سهير القلماوى جَدَّة، أحبت أحفادها حُبًّا غامرًا، وعميقًا.. وكان حفيد لها يعيش مع والده خارج مصر، وكان اليوم الذى تتبادل معه الحديث عبر التليفون من أسعد أيام حياتها، وهى تنقل لمن حولها تلك الأحاديث الحلوة القصيرة المقتضبة.. وهى تضرب بها الأمثلة للفارق بين ما يجرى عندهم وما يحدث عندنا..

كانت حريصة على الوقت حرصًا شديدًا، وهى لا تتأخر أبدًا عن مواعيدها، ولا تبدد دقيقة واحدة فيما لا طائل منه.. وحضر أحدهم اجتماعًا للجنة ثقافة الأطفال ـ بالمجلس الأعلى للثقافة ـ متأخرًا نصف ساعة، ولم تكن تطيق مثل هذا العبث، لذلك حانت لها الفرصة بعد قليل لكى تلتفت إلى هذا الزميل، ونحن نناقش قضية الدقة فى العمل، وفى المواعيد، وفى كل شىء فقالت: إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه، وأضافت:

- أمس كان حفيدى يتحدث إلىَّ من «كندا»، وقد خطر لى أن أسأله:

- كم الساعة عندكم الآن؟!

أجاب: الخامسة وسبع عشرة دقيقة..

وعقبت: لم يقل الخامسة والربع، ولا هو قال الخامسة والثلث، وعمره لا يتجاوز ست سنوات، لكن هكذا تكون الدِّقَة فى الإجابة، والحرص عليها، والتنبه لها.

ومضى عام على هذه الحكاية الصغيرة التى لا يمكن نسيانها، وتعد مثلاً رائعًا للدقة.. وجاءت مناسبة أخرى لكى تحكى عن هذا الحفيد.. فى مكالمة تليفونية سريعة، قالت له:

- ارفع صوتك، فما عدتُ قادرة على أن أسمعك.. أذناى أصبحتا لا تلتقطان هذا الصوت الهامس..

رد ابن السابعة: ياجدتى، وأنا لا أقدر على رفع صوتى أكثر من هذا، ذبذباته تقف عند هذا الحد، فاعذرينى.

وعقبت بعد أن روت هذه الحكاية..

- إنهم يعرفون الكثير ويتعلمون منذ هذه السن المبكرة الفيزياء: الصوت وذبذبته وتردده، ويستطيعون استخدام ذلك فى أحاديثهم اليومية.

كانت جدة حنون، ترقب نمو أحفادها، وتتابعه فى اهتمام بالغ عن بُعد، وتلقن العاملين فى مجال الطفولة تلك الدروس التى تلتقطها من هؤلاء الأحفاد الصغار، الذين يصبحون بهذا أساتذة ومعلمين، عنهم نعرف احتياجات الأطفال الضرورية من جانب، وميولهم ورغباتهم من جانب آخر.. وهى هنا تتعلم منهم، بأكثر مما تعلمهم،

مما يؤكد أنها جدة حصيفة عاقلة تترك مهمة تعليمهم للمدرسة، ومهمة تربيتهم إلى والديهم، وتحاول هى أن تتعلم منهم وعنهم.. وذلك من خلال الحب العميق، الذى يتفهم الأمور، ويقدر الظروف، ويعرف طبيعة هذه العلاقة الجميلة والرائعة، ما بين الجد من جانب والحفيد من جانب آخر.. لقد تعلمت من جدتها، وكتبت لنا ما سمعته منها من حكايات.. وتعلمت من حفيدها، وروت لنا ما تعلمته منه، حتى عبر أسلاك التليفون.. لقد كانت حفيدة عظيمة.

كما كانت جدة رائعة.

* * *

openkandl.com

الحفيدة «سهير القلماوى»

فى سنة ١٩٣٥ صدر كتاب «أحاديث جدتى» للمؤلفة سهير القلماوى.. لم تكن قد أصبحت بعد الدكتورة سهير.. الكتاب عنوانه «أحاديث جدتى»، بمقدمة للدكتور طه حسين.. وقد كتبت المؤلفة كتابها هذا بصفتها حفيدة.. تروى عن جدتها أحاديثها.. كانت الجدة تحكى عن ذلك العصر الذى سبق الاحتلال البريطانى لمصر.. وحاول عميد الأدب العربى تبرير حُبه لهذا الكتاب وتكرار قراءته له، وعَزَا ذلك إلى الشخصيات المرسومة فيه، بما لهم من أخلاق وعادات بَعُدَ عهده بها، فكانت الحضارة الحديثة تنسل إلى حياتهم فى ذلك الحين، ولكن على حذر واحتياط، وفى شىء من الشك والريبة، حتى لا تفنى شخصيتنا وتذوب من خلال الرغبة العارمة فى التجديد.. يضاف إلى ذلك مالمسه من سذاجة حلوة تترقرق فيه، وما كانت الحياة فيه خشنة أو جافة، بجانب العبارة السهلة البريئة من التكلف.. ثم يقول:

- لعل إعجابى بسهير الكاتبة، ورضاى عن سهير الطالبة من الأسباب التى تحبب إلىَّ هذا الكتاب..

وسؤال يطرح نفسه: ألم يضع العميد يده على تلك الوشيجة والصلة العميقة والحميمة ما بين الجدة والحفيدة؟ وكيف أن هذه الأحاديث فى كل الأجيال حين تأتى من الجد والجدة تسحر الحفيد

والحفيدة على المستوى الإنسانى العام، وليس ما حدث ما بين الجدة وسهير القلماوى، فحسب؟!

لقد وضعت الحفيدة يدها على عمل يجتذب السامع إليه، يحبه وينبهر به، وهى سمة إنسانية عامة، يحتشد بها أدب الغرب، وربما حُرمت منه أجيال سابقة لدينا فى بلادنا لسبب واضح، هو أن متوسط الأعمار كان قصيرًا، وقليلاً.. وقلَّما كان ذلك الجيل يعاصر الأحفاد. ونادرون مَنْ هم على شاكلة د. سهير، رأوا جَدًّا أوجدةً من الأربعة، وقلَّما حظى الأحفاد بهذه المتعة الكبيرة.. وقليل منهم كبروا فى أحضان الجدود، ليسمعوا حكاياتهم ويطربوا لها ويستمتعوا بها، وما الحكايات الشعبية إلا تراثًا أخذه الأبناء والأحفاد عمَّن سبقوهم إلى أن جلس أحدهم ليثبتها على الورق.. كما فعلت الحفيدة الذكية سهير القلماوى، وقد أعادت سلسلة كتب مهرجان القراءة للجميع طبع كتابها الممتع هذا، والذى يضم سبع حكايات طُبعت سبع طبعات، إلى أن أصبحت د. سهير نفسها: جدة.. ومن يريد أن يعرف حقيقة المتعة، فعليه أن يقرأ أو يعيد قراءة هذه الحكايات البديعة التى وقعت بين الجدة والحفيدة أو روتها لها.. وقد أصبح لحكايات الجدات مكانة خاصة بها فى أدب الأطفال على مستوى عالمنا الرحيب.

* * *

الجد: أعظم راوى حكايات

هناك تقليد أمريكى طريف.. أن يدعو أطفال المدارس الجُدود والجدَّات من كبار السن إلى زيارتهم فى مدارسهم وقضاء يومٍ معهم، يحكى فيه هؤلاء بعضًا من خبراتهم، ويسردون جانبًا من تجربتهم فى الحياة.. ولكل منهم أن يختار من الحكايات ما يشاء.. ويلقى هذا اليوم نجاحًا منقطع النظير بين الصغار الذين يعتز كل منهم بجدِّه وجدَّته، ويفخر بإنجازاته، ويفرح بتقديمه إلى زميلاته وزملائه، وهؤلاء الكبار يبتهجون بهذا اللقاء، ويفرحون، ويستعدّون له بأجمل ما لديهم من ثياب وتذكارات وحكايات ظريفة، تمتع الصغار وتثير شهيتهم للسماع، وتلفت أنظارهم إلى مجالات للعمل صال فيها هؤلاء وجالوا فى شبابهم، لعل ذلك يدفع الأحفاد إلى اتخاذهم قدوة لهم.

ويذكر الجد «يوسف» أنه حين زار روضة الأطفال الكندية التى التحق بها حفيده «أحمد» أن الصغير قد قدَّمه فى فخر واعتزاز شديدين إلى المربيات وإلى زملائه قائلا:

- جدى، أعظم راوى حكايات فى العالم!

انبهر الأطفال وفتحوا عيونهم وآذانهم ليسمعوا الجدَّ «يوسف»، لكن صغيرة ارتفع صوتها تقول:

- بل جدى أنا أعظم رَاوٍ للحكايات فى الدنيا!

ضحك البعض، وابتسم آخرون، وعبس «أحمد»، لكن جده سارع يقول:

- كل جد هو أعظم راوٍ للحكايات فى العالم وفى الدنيا كلها.. بالنسبة لحفيده.

تبادل الأطفال النظرات، وكان بها إعجاب كبير بما قاله الجد «يوسف»، وأمَّنُوا على قوله صائحين:

- هذا صحيح!

وساد الصمت فى الحجرة قليلاً، بعدها ارتفع صوت الجد «يوسف» يحكى:

- عندما كنتُ صغيرًا حملتُ طعام الغداء إلى أبى الذى كان يعمل فى حقله منذ الفجر.. وقد وجدته نائمًا تحت شجرة، وكان واضحًا لى أنه نام فى ظلها، لكن الشمس استدارت، وأصبحت ترسل بأشعتها الحارة عليه، وأقلقنى هذا، وفكرت فى وسيلة أبقيه بها نائمًا، وأظلله، وأحميه من ضربة الشمس، وخطر ببالى أن أخلع جلبابى وأربطه من الكُمَّيْن حول جذع الشجرة، وبذلك يبقى أبى نائمًا فى الظل.. وبقيت واقفًا على هذه الصورة مدة طويلة، وما من شىء يظلّلنى أنا.. وفتح أبى عينيه ليرانى واقفًا على هذه الصورة، وتنبه، وجلس مُسْنِدًا ظهره إلى الشجرة، وفجأة دمعت عيناه، ثم انخرط فى البكاء، الأمر الذى

أدهشنى، بل أذهلنى.. وسألته:

- ماذا بك يا أبى؟!

قال فى صوت مبطن بالدموع:

- لاشىء.. لا شىء يا بنى... فقط، ذَكَّرْتَنِى بما فعلته أنا حين كنتُ فى مثل سنّك.. لقد ظللت جدَّك بنفس الطريقة - تقريبًا - التى قمت أنت بها.. السماء ادَّخَرَتْ لى هذا العمل الطيب الذى قمتُ به، من أجل أن تؤديه أنت لى.. وليس غريبًا أن نتوارث هذا الحب!!

وسكت الجد «يوسف».. وصفق الأطفال. وقامت الطفلة الكندية من مكانها، وتحركت نحو الجد «يوسف»، فانحنى عليها يسألها:

- ماذا تريدين ياحبيبتى؟

وإذا بالصغيرة تقبّله فى وجنتيه وتقول:

- لم يُخطىء «أحمد».. أنت حكيت لنا حكاية غاية فى الجمال.. نعم.. أنت «أيضًا» أعظم راو للحكايات. وأكدت الصغيرة على كلمة أيضًا، والمربيات يضحكن من أعماق قلوبهن!

* * *

جدتى: لشوقى

صلة الجد والجدة بالحفيد والحفيدة جميلة ورائعة.. وقد يخطر بالبال:

ماذا لو أن هذا الجد شاعر؟!

بل ماذا لو أنه أمير الشعراء؟!

أمير الشعراء «أحمد شوقى» قال شعرًا فى أبنائه.. منه:

يقولون لِمَ تُطْرِى عليًّا وأختَه
وتنسى حُسينًا والحُسين كريمُ

فقلت: فؤادى للثلاثة منزلٌ
هما طُنْبَاهُ والحسين صميمُ

(والطُّنْبُ هو الحبل الذى تُشَدُّ به الخيمة، أو القوائم التى يقوم عليها السُّرادق)

ثلاثة أسباب لأُنْسِى ولذَّتى
يبارك فيها مانِحِى ويديمُ

إذا ما بدا لى أن أُفاضل بينَهم
أَبَىَ لى قلبٌ عادل ورحيمُ

أحب صغار العالمِين لأجلهم
ويعطف قلبى ذُو أَبٍ ويتيمُ

ويضيف شوقى عن طفله الرضيع:

إذا رَاحَ يهذى بالحديث فشاعرٌ

وإن جدَّ فيما قاله فحكيم!

لا شك أن البسمة علت وجوهكم وأنتم تستمعون لهذا البيت الجميل الرصين، فما بالكم إذا أنتم قرأتم أو أنصتم إلى قصيدته الرائعة عن جدّته؟! إنها واحدة من أبدع أشعاره، حكى فيها قصة كاملة، مع أن أبياتها لا تتجاوز العشرة.. يقول:

لى جَدَّة تَرْأَفُ بى .·. أحْنَى علىَّ من أبى

وكل شىء سرَّنى .·. تذهبُ فيه مَذْهَبِى

إن غضب الأهلُ علىَّ كُلُّهُمُ لم تغضبِ

مشى أبى يومًا إلىَّ مشْية المؤدِّبِ

غضبان قد هدَّد بالضَّرب وإن لم يضرب

فلم أجد لى مِنْهُ غيرَ جَدَّتى من مَهْرَب

فجعلتْنى خَلْفَها .·. أنجو بها وأختبى!

وهى تقول لأبى .·. بلهجة المؤنِّب:

وَيْحٌ له! ويحٌ لهذا الولد المُعَذَّب!

ألم تكن تصنع ما .·. يصنعُ إذْ أنتَ صبِى؟

هل من تعقيب أو تعليق على هذه الدُّرَّة منَ دُرَر شاعرنا الكبير أمير الشعراء: أحمد شوقى؟!.. من الأفضل أن ندعها، كما هى، تصل إلى قلوبكم عبر أسماعكم.

أعز «الولد»

علاقة الجدة والجد بالحفيدة والحفيد علاقة متميزة، يدركها الناس فى كل زمان ومكان، وقد عبّر عنها المثل الشعبى الشهير والصادق:

- «وأعَزَّ الوِلْد، ولد الولْد».

والسؤال الذى يمكن أن يطرحه هذا المثل:

- هل حقًّا يحب الجد والجدة، الحفيد والحفيدة حبًّا يتجاوز الحب للابن والابنة؟!

بداية، ما من مقياس نستطيع أن نقيس به الحب، ولا ميزان نزنه به.. ولا «ترمومتر». لكن هذه المقولة قد تكون صحيحة لأسباب منطقية ومعقولة، لأن الأب ينشغل بتربية أبنائه ويبذل جهدًا حقيقيًّا من أجل ذلك، ويحس بعد ذلك أنه قد أدى رسالته ومهمته، وعندما يأتيه الأحفاد يركز أكثر على حبهم ومداعبتهم، لأن المهمة الثقيلة تقع على عاتق الأبوين.

والجد، حين كان أبًا كان يعيش مع أبنائه، ويعاشرهم، وإذا ما كبروا وتزوجوا غادروا الدار وأقاموا فى مسكن خاص، وهم ينجبون الأبناء ويعيشون معهم، فى حين يكون الجد فى بيته بعيدًا عن هؤلاء الأحفاد، وقد يعيشون فى بلد آخر، ومن هنا يستبد الحب والشوق

بالجد والجدة، نتيجة لذلك وثمرة له، وعندما يتم اللقاء يكون مفعمًا بالمشاعر الحلوة والأحاسيس الطيبة.. وهم يفترقون على أمل لقاء جديد.. ينعمون فيه معًا باللعب الذى يتصابى فيه الجد للحفيد، وتدب فيه الحياة، ويتجدد نشاطه، حتى ليتساءل:

- أين هذا على مدى اليوم؟

إنه قد يئن ويتوجع بسبب الشيخوخة أو المرض، لكنه ينسى سِنَّه، ويغفل عن مرضه، إذا هو التقى بالحفيد، وما إن يغادره حتى يعاوده تذكر سنين عمره، وآلامه وعلله.. ويضحك جَدٌّ وهو يحكى عن مداعبته لحفيده:

- لاتضحكوا منى إذا قلت لكم هذا التعبير الذى ربما تجدونه نابيًا، لكنه حقيقى.. «أنا باعمل لحفيدى عجين الفلاحة لكى أضحكه»! ولا نكتم ضحكاتنا، بل نحاول تصوّر ما يفعله هذا الجد مع حفيده، مما قد يرهقه ساعات من بعدها.

وتحاول د. فايزة يوسف عميدة معهد دراسات الطفولة تطبيق دراساتها مع حفيدتها، وتحكى لها الحكايات التى تطرب لها الصغيرة طربًا شديدًا، وتفضلها على أى شىء آخر، إلى حَدٍّ أنها قالت عنها عبارة فريدة ورائعة.. قالت الصغيرة:

- جدتى «فيوزة» أحسن من «ميكى» ألف مرة!

ولقد ضحكت الجدة من أعماق قلبها، وهى لا تظن أنها قد تلقت عبر حياتها كلها تحية جميلة مثل هذه التحية، إن الصغيرة تفضلها على «الكرتون» الملوّن المتحرك الذى يجذب إليه الأطفال، وتَرى أن حكاياتها ـ كجدة ـ أحلى من هذا الفأر المغامر الساخر، والذى هو قادر على تسلية الصغار وإمتاعهم إلى أقصى حد.

ويبقى السؤال:

ـ هل أعز الوِلْد فعلاً وِلْد الوِلْد؟!

* * *

obeikandl.com

الزيارة الميمونة

يوجه الأحفاد الصغار فى دور الحضانة ورياض الأطفال الدعوة إلى أجدادهم لزيارتهم فى هذه الدور.. يأتون إليها جماعةً، وقد يجيئون فُرادَى.. واحدًا بعد الآخر.. ويوم يتلقى الجد هذه الدعوة الكريمة يطير فرحًا وسعادة.. تقول الدعوة: نتشرف بأن تتفضلوا بزيارة حفيدكم وزملائه.. وتشرق الابتسامة على وجه الجد، ويرقص قلبه ابتهاجًا.. ويحمد الله أن مدّ فى عمره من أجل أن يحظى بهذه اللحظات الرائعة.. إنه يعدّ الأيام، بل والساعات، لكى يحين موعد الزيارة.. وهو يستعد لها طويلاً ويسأل نفسه:

- ماذا أرْتدى؟ أى شىء ألبس لأَبْدُو أنيقًا مقبولاً يعتز بى حفيدى ويفخر؟!..

وهو لا يتحرج أبدًا من سؤال الحفيد: ماذا لبس الآخرون حين قَدمُوا للزيارة؟!.. إنه يستشيره، والحفيد يشير ويقترح.. وقد يقول لجده:

- لقد كنت ضابطًا بالجيش أو البحرية، لماذا لا تجىء إلينا فى ثياب الجندى أو الضابط، أو فى ملابس البحرية؟

وليست الثياب وحدها هى التى تؤرّق الجد، بل أيضًا:

- هل أحمل معى هدية مَّا؟!.. حلوى؟.. طعامًا؟ أو: هل تقترح شيئًا ياحفيدى تحتاجون إليه؟

الصغير يرجو جدّه: لا طَعَامَ.. ولا شراب.. لدينا منه الكثير.. ما رأيك ياجدى فى نبات ظل نجمّل به حجرة الدار؟

ويسعد الجد.. إن الحفيد يفكر.. ويعبر.. ويقترح.. ويشير.. يالها من لحظة سعادة مشتركة بين القطبين.. وقد يقول الصغير:

- ما رأيك ياجدى لو أحضرتَ بعض التذكارات القديمة التى عندك؟!.. ميدالية حصلت عليها.. هل لديك قطع نقود من أيام طفولتك؟ هل عندك ثوب قديم منها؟ هل لديك صور؟.. ستكون طريفة ياجدى، خاصة حين نقارنها بصورنا اليوم.. ثيابكم تبدو طريفة ومضحكة حين نتطلع إليها.

ويقلب الجد فى تذكاراته.. إن على الحائط لوحة رسمها حين كان فى الخامسة من عمره، وضعتها أمه ـ رحمها الله ـ على الجدران بعد أن جعلت لها إطاراً بديعًا..

سيحملها معه.. وهناك أشياء ورثها عن جدّه.. يا إلـهى!! إن عمرها مائة عام وأكثر.. سينبهر الأطفال إذا رأوها وأمسكوها بأيديهم أو لمسوها.. و.. و..

ويجىء يوم الزيارة.. روعة فى الإثارة.. ولابد أن نحكى لكم عن اليوم الذى يزور الجد حفيده فى الحضانة أو رياض الأطفال.. إنه يوم خالد فى حياتهما معًا.. يوم لا يُنسى.

* * *

لعبة التوازنات

قال الجد لابنه الشاب، الذى لم يَزُرْهُ منذ وقت طويل:

- هل يوحشك ابنك الصغير؟

هتف الشاب:

- طبعًا.. لا أطيق الغياب عنه بضع ساعات.

سكت الجدّ، وسأله الابن الشاب:

- لماذا سؤالك هذا يا أبى؟

قال الجد:

- لاشىء. أريد أن أقول لك إن ابنى - أنا أيضًا - يوحشنى كثيرًا.. ابنى الذى هو أنت..

نكس الشاب رأسه، وقد علت حُمرة الخجل وجهه، ولم يجد ما يرد به، وسكت ولم يرد الجد، ولم يزد فى إحراجه.. لذلك سكت هو الآخر، فما به رغبة فى تبكيته والتنكيد عليه.. فقط، كل ما كان يريد أن يقوله ويلفت النظر إليه أن له حقًّا عند ابنه!

وحدث أن كان الجد والابن والحفيد يجلسون معًا على المائدة، واختار الجد أطيب ثمرة فاكهة أمامهم، وأعطاها لابنه الشاب، وإذا بهذا، بدوره، يعطيها للحفيد، وربت الجد كتفَ الأب الشاب، وقال:

- لماذا أعطيتها له؟ لقد قدمتها لك أنت.. لأنه يطيب لى ذلك..
أريد أن أعطى ابنى هذه الفاكهة، لماذا حرمتنى من هذه المتعة؟!

إن العلاقة بين الأجيال الثلاث ليست بسيطة وسهلة، كما يتصور البعض.. إنها علاقة مركبة، ولا نقول معقدة، لكنها ذات عناصر عدة، يجدر بنا التنبه إليها، واليقظة فى التعامل معها.. قد يجد الحفيد فى الجد حاميًا له من عقاب على هفوة، والأب يضيق بذلك، لأنه يريد للصغير ألاّ يكرر الخطأ، وقد تحدث ثمرة لذلك بعض الخلافات.. وقد يفضل الجد حفيده على ابنه، أو يفضل الأب ابنه على أبيه، لذلك نرى أنها علاقة تحتاج إلى لون من التوازن لابد من الإشارة إليه، من أجل أن يستمتع الأطراف الثلاثة بهذه الصِّلة الحميمة، ويدوم الود فيما بينهم.

وجدير بنا هنا أن نجعل لهذه الصلة ولتلك العلاقة قاعدة صلبة، ترتكز عليها، ويقوم من فوقها بنيان شامخ.. لكن ذلك لن يتحقق إلا إذا حكمنا فيها عقولنا، ولم نتركها للمشاعر والأحاسيس فحسب.. إن العقل، إذا ما قدم تحليلا منطقيا مقبولا لما يحدث، فسوف تتسرب المشاعر، وتجدب الأحاسيس، بل ربما تحولت إلى شىء آخر، مخالف أو نقيض لما نستهدفه.. لذلك فإن علينا أن نمعن الفكر ونعمق المشاعر مابين هذه الأطراف، وصلاً لها بعضها ببعض.. لتنمو وتكبر.. وتزدهر.. وتستمر...

* * *